ذاكرة من أذارَ

طفولةٌ احترفتْ قبلَ أن تكبر

يمنى الجنيدي

إهداء

إلى ذلك البيت الذي علّمني معنى الفقد،
وإلى تلك الطفلة التي كانت أنا...
وما زالت تسكنني.

إلى أمي،
التي وقفت تحت المطر تحدّق في النار
وتحمل في قلبها بيتًا كاملًا.

إلى أبي،
الذي غاب جسدًا
وبقي وطنًا في صدري.

إلى أحمد،
رفيق الخوف،
وشاهد الطفولة التي لم تكتمل.

وإلى كل طفل
كبر قبل وقته،
وحمل في ذاكرته
بيوتًا لا تعود...
لكنها لا تُنسى.

— يمنى

المقدمة

هذا الكتاب ليس حكاية،
بل جرحٌ ما زال مفتوحًا في ذاكرة طفلة كبرت قبل أوانها.

لم أكتب لأستدرّ شفقة،
ولا لأعدّد خسارات،
بل لأحفظ صوت تلك الطفلة التي وقفت في الشرفة تشاهد بيتها يحترق...
ولا تفهم لماذا.

في آذار،
لم يحترق الجدار فقط،
بل احترق شيء في داخلي اسمه الأمان.

هذه الصفحات ليست عن نارٍ أكلت بيتًا،
بل عن طفولة أُجبرت أن تكبر،
وعن ذاكرة ما زالت،
بعد كل هذه السنين،
تسأل:
كيف ينجو القلب حين لا ينجو البيت؟
أهدي هذه الكلمات
لكل طفلٍ عرف الخوف قبل اللعب،
ولكل بيتٍ صار رمادًا
وبقي حيًا في الذاكرة

قبل 22 سنة، لم أكن أفهم معنى السياسة، ولا سبب الجنود، ولا لماذا تُكسر الأبواب في منتصف الليل.
كنت طفلًا فقط...
أعرف أن لي بيتًا، وسريرًا، وزاوية آمنة أختبئ فيها من العتمة.

في تلك الليلة، لم ينفجر البيت وحده...
انفجر داخلي شيء اسمه الطمأنينة.

صوتٌ واحد، كان كافيًا ليجعل طفولتي تركض حافية، تبحث عن أمّها بين الغبار،
وتسأل:
هل ما زلنا أحياء؟

لم أعد أذكر لون الجدران،
لكنني أذكر ارتجاف الأرض،
ورائحة الخوف

كبرتُ...
لكن ذلك الطفل ما زال واقفًا هناك،
أمام بيت لم يعد بيتًا،
وأمام عالم لم يفهم لماذا يُهدم حلم طفل
لأنه وُلد فلسطينيًا

ليلة احترق فيها البيت... وكبرتُ قبل أواني

في آذار عام 2003،
وتحديدًا بعد يومين من عيد ميلادي الرابع،
كانت الأمطار والعواصف شديدة،
وصوت الرياح كان يرعبني دائمًا.

كنت أتخيّل أنها "حرامي جاي يسرقنا ومش عارف يفتح الباب"...
هكذا تفكّر طفلة.

في حوالي الساعة الثانية ليلًا،
سمعت طرقًا قويًا على الأبواب.
استيقظت فورًا، لأنني أخاف هذه الأصوات بشدّة.

كنّا ننام أنا وأمي وأخي أحمد في بيت جدّي،
كما هي العادة منذ عامين،
بسبب مطاردة والدي من جيش الاحتلال.
عند موعد النوم نذهب لبيت جدّي، والد أبي أو والد أمي،
لكن في تلك الليلة كنّا في بيت جدّي رضوان - رحمه الله.

أيقظت أمي بسرعة:
- ماما، في جيش بخبطوا! قومي!

قالت وهي نصف نائمة:
- يمنى لا تضلي تتخيّلي، هذا الهوا والشتا، سمي بالله وارجعي نامي، اقرئي آية الكرسي.

كان هذا ردّها دائمًا،
لأن الجيش كان يأتي كثيرًا بسبب مطاردة أبي،
فكنت أتوهم صوته في كل ريح.

لكنني لم أستطع النوم...
الصوت كان يزداد.

ثم سمعنا صوتًا واضحًا:
"افتح! افتح! جيش!"

قفزت أمي من السرير:
- والله جيش صحيح يا يمنى... جيش.

ذهبت مسرعة إلى غرفة جدّي وزوجته وأيقظتهما،
ثم عادت بسرعة وهي تقول:

- يمنى، البسي كبودك،
وأحمد، يلا البس روبك.
البسوا أحذيتكم، حطوا الطواقي واللفحات... الدنيا برد كتير.

نزلت زوجة جدّي لتفتح الباب،
ووقفت أمي عند مدخل البيت في الطابق الثاني مع جدّي،
وكان كبيرًا في السن يصعب عليه صعود الدرج

بدأت أرتجف أنا وأحمد...
ليس من البرد،
بل من الخوف.

دخل الجنود خلال ثوانٍ.
قال أحدهم:
- أنا كابتن عمر، جاي أقبض على راجح. وينه؟

قالت أمي:
- ما بنعرف.

سألها:
- ما اسمك؟
قالت: بشائر.
قال: - إذن أنتِ زوجة راجح. تعالي معنا.

أمسكنا أنا وأحمد بثيابها بسرعة.
قال الجندي:
- لوحدك، بدون الأطفال.

رأيت أمي تذهب مع الجندي،
وتركنا وحدنا.

كانوا يرسمون وجوههم بالأسود والأحمر،
ويضعون أغصان الشجر على قبعاتهم،
أسلحتهم كبيرة...
مرعبة.

مسكت يد أحمد بقوة،
وتمنّينا أن ينتهي هذا الكابوس

نادى الجندي على جدّي وزوجته،
فذهبوا وتركنا وحدنا.
لا أتذكر ماذا فعلنا،
لكنني متأكدة أننا غرقنا بالبكاء.

عادت أمي مع الكابتن،
ووجدتنا ما زلنا واقفين عند الباب.
قالت له:
- أولادي صغار والدنيا برد، اسمح لهم يدخلوا الغرفة وأشغّل المدفأة.

وافق على مضض.

أدخلتنا أمي غرفة جدّي،
وأشعلت المدفأة.
لو تعلم أمي أننا لم نكن نشعر لا بالبرد ولا بالدفء...
كنا اثنين،
وثالثنا الخوف فقط.

بقينا في الغرفة،
وجنديان على الباب،
وجنود يفتشون البيت،
يقلبون الموكيت، يكسرون الكنب،
يخربون كل شيء...
كما كانوا يفعلون دائمًا عند البحث عن أبي

بعد وقت لا أعرف كم،
جاء جدّي وزوجته إلى الغرفة،
فشعرنا بقليل من الأمان.

ثم انقطعت الكهرباء.
تمسّكنا بهما.

سمعنا الجنود ينادون:
"اخرج! اخرج من المنزل!"

ذهبنا إلى شرفة جدّي المطلة على بيتنا...
وإذا خلال ثوانٍ:

انفجار.
ثم نار...
ثم نار أخرى.

احترق بيتنا.

سمعت صوت عمي يصرخ بين المطر والرياح:
- البيت فيه قناني غاز! رح ينفجرو كيف رح تطفي النار

بحثت عن أمي...
رأيتها واقفة تحت المطر،
تنظر إلى البيت.
لا أعرف:
هل كان المطر على وجهها؟
أم الدموع؟

قال جدّي وهو يحوقل:
- لا حول ولا قوة إلا بالله... حسبي الله ونعم الوكيل.
الله يعوض عليكم يا دار راجح.

نظرت للنار،
وانكسر زجاج الشبابيك،
وتطايرت الستائر محترقة.

وفجأة،
تذكرت أهم شيء في عقل طفلة:

عيد ميلادي كان قبل يومين...
بابا جاب لي لعبة طويلة، أطول مني.
كانت حمراء، بشعر أشقر.

احترقت

وكان في كيكة عليها اسمي...
لم أذق منها بعد.

بابا جاب لأحمد بسكليتة بعجل واحد لونها ازرق .
غرتُ وقتها،واعترضت هذا عيد عيد ميلادي
لكن بابا قال:
- هاي الك وإله.

رفعتها امي فوق السدّة لنلعب بها عندما ندخل الروضة.

وماذا عن روب "تاتا"؟
جاءتني به من دبي،
أبيض وزهري،
مع قفازات ولفحة وطاقية.

قالت لي:
- هذا الك مخصوص يا يمنى.

في تلك الليلة قالت لي أمي:
- البسي روبك.
قلت لها:
- لا، بدي أخبيه وألبسه لما يجي بابا.

يا ليتني لبسته

أحمد لبس روبه،
ونظرت إليه بحسد...
على الأقل خرج بشيء.

لا أتذكر إن بكيت،
لكنني أقسم أنني بكيت على الروب أيامًا طويلة...
وحتى اليوم،
تأتي ببالي لعبتي الحمراء.

بعد مدة، جاءت أمي.
كانت تنظر إلى الفراغ،
مبللة بالمطر...
والآن فقط أعرف أنها كانت مبللة بالدموع.

قالت لها زوجة جدّي:
- شو أخذتي من الدار؟
قالت:
- حكولي ادخلي نادي راجح، قلت لهم مش موجود، قالوا تأكدي

دخلت،
كانوا طاخين الحيطان،
ومخربين كل شيء.

قالت:
– الكبود اللي جابه راجح هدية، كان مليان تراب ودهان...
رميته على التخت.

وبعد دقائق،
سمعتهم ينادونها:
"اطلعي برا!"

خرجت،
وقبل أن تصل لنهاية الساحة...
رأت النار،
وسمعت الانفجار.

قالت زوجة جدّي:
– يعني ما أخذتي ولا شيء؟
قالت أمي:
– بس اللي علينا

بعد وقت قصير، امتلأ بيت جدّي بالأقارب والجيران.
الكل يسأل بقلق:

– أين الإطفائية؟
البيت يحترق من الساعة الثالثة، والآن الساعة السابعة،
ولم تأتِ بعد!

قالت أمي:
– اتصلنا، لكنهم يقولون إن الجيش واقف في أول الشارع
ويمنع وصولها.

هممهمت النساء:
– حسبي الله ونعم الوكيل...

وصل أهل أمي مسرعين بعد أن سمعوا الخبر.
ركضت إلى جدّتي "تاتا" وأنا أبكي:

– تاتا... حرقوا الروب اللي جبتيه لي هدية!

نظرت إليّ بحزن،
ووعدتني أن تأتي لي بآخر

ثم قالت لأمي وهي تشير إليّ:
– انظري إلى شعر بنتك... لقد شابت.

ربما أمي لم تسمع من شدّة الصدمة،
لكن زوجة جدّي نظرت إلى شعري وقالت:

– نعم... من الخوف.
نحن الكبار شبنا، فكيف بهذه الصغيرة؟

وكان حقًا...
ثلاث شعرات بيضاء ظهرت في رأسي،
من شدّة الخوف،
ومن الحزن على لعبتي وروبي

وصلت الإطفائية أخيرًا عند الساعة الثامنة تقريبًا،
وأطفؤوا الحريق...

لكن...
هل هناك من يطفئ قلب أمي؟
أو قلب أبي؟
أو قلبي وقلب أحمد؟

احترقت الذكريات،
والألعاب،
حتى المرجوحة ذات المقعد في ساحة البيت...
وصلت إليها النار،
احترق حبلها،
ثم احترقت هي.

وبعد أشهر من تلك الليلة،
أُلقي القبض على والدي،
وسُجن عامين،
بعد مطاردة استمرت عامين

النهاية

بين لحظة الاحتفال ودمار النار، تعلمت أن القوة“
الحقيقية لا تُقاس بما نملك، بل بما لا يستطيع أي حريق
.أن يحرقه: روحنا